...«فَقَدِ اتّخذْتُكَ حَبيباً»...

وفي مسيرة الوقوف مع المحطّات التي تُبين قدر الحبيب المصطفىٰ هذه المحطّة الرائعة ، والتي فيها: رُوي أنه لما خرج آدم عليه السلام من الجنة رأىٰ مكتوباً علىٰ ساق العرش وعلىٰ كل موضعٍ في الجنة اسم محمد ﷺ مقروناً باسم الله تعالىٰ ، فقال: يا رب ، أسألك بحقّ محمدٍ لما غفرت لي.

فقال الله: «يا آدم ، وكيف عرفتَ محمداً ولم أخلقه؟».

قال: لأنك يا رب لما خلقتني بيدك ، ونفختَ فيَّ من روحك ، رفعتُ رأسي فرأيتُ علىٰ قوائم العرش مكتوباً: لا إلٰه إلاّ الله محمد رسول الله ، فعلمتُ أنكَ لم تُضف إلىٰ اسمك إلاّ أحبّ الخلق إليك.

فقال الله تعالىٰ: «صدقتَ يا آدم ، إنه لأحبّ الخلق إليّ ، وإذ سألتني بحقّه قد غفرت لكَ ، ولولا محمّد ما خلقتك».

وفي رواية الطبراني زيادة: «وهو آخر الأنبياء من ذريتك».

ويؤكّد هذا حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه عند المؤرخ ابن عساكر (ت: ٥٧١ هـ) قال: هبط جبريل علىٰ النبيّ ﷺ ، فقال: إن ربك يقول: «إن كنتُ اتخذتُ إبراهيم خليلاً ، فقد اتخذتك حبيباً ، وما خلقتُ خلقاً أكرم عليّ منك ، ولقد خلقتُ الدنيا وأهلها لأعرّفهم كرامتك ومنزلتك عندي ، ولولاك ما خلقتُ الدنيا».

ولله درّ العارف الكبير علي وفا (ت: ٨٠٧ هـ) حيث قال في قصيدته التي أولها:

سكـن الفـؤاد فعـش هنيئـاً يـا جسـد هـذا النعيـم هـو المقيـم إلىٰ الأبـد

روح الوجود حياة من هو واجد ... لولاه ما تمّ الوجود لمن وجد

عيسىٰ وآدم والصدور جميعهم ... هم أعين هو نورها لما ورد

لو أبصر الشيطان طلعة نوره ... في وجه آدم كان أول من سجد

أو لو رأىٰ النمرود نور جماله ... عَبَد الجليل مع الخليل ولا عند

لكن جمال الله جلّ فلا يُرىٰ ... إلا بتخصيصٍ من الله الصّمد[1]

أجل يا روح الوجود يا أبا القاسم!

كل هذه العظمة ، وكل هذه الرِّفعة ، وكل هذا المقام العالي ، كان قبل ولادتك وقبل مبعثك ، فكيف أصبح الحال عندما أنزل الله عليك القرآن الكريم؟!.

ليست المسألة إلاّ كما قال الله تعالىٰ في القرآن الكريم: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦].

فصلوات الله عليك يا سيدي يا رسول الله في كل وقتٍ وحين.

* * *

(١) المواهب اللدنية للقسطلاني: ١/ ٨٣ ـ ٨٤.